الفصل الثالث

طويوطومى هيديوشى وتوحيد البلاد

١ - اجتماع التوريث :

بعد مقتل ميتسوهيدى بأربعة عشر يوما فى السابع والعشرين من شهر يونيو ١٥٨٢م عقد اثنين من أولاد أودا نوبوناجا ومعهم أهم قواد عشيرة أودا اجتماعا فى قلعة كيوسو فى مقاطعة أوارى مسقط رأس نوبوناجا، وذلك لتحديد من يخلف نوبوناجا فى رئاسة عشيرته .

كان الابن الأكبر لنوبوناجا هو نوبوتادا Nobutada (١٥٥٧م – ١٥٨٢م) قد توفى فى قلعة نيجوجو إثر حادثة هونونوجى أى أنه توفى مع والده فى نفس التوقيت، وبقى الابن الثانى نوبوكاتسو والثالث نوبوتاكا اللذين حضرا الاجتماع، وأحضر الزعيم هيدويوشى معه فى الاجتماع ابن أخيهم الكبير نوبوتادا الذى لم يتعد السنة من عمره ملوحا بأن هذا الرضيع يجب أن يكون وريث نوبوناجا فى رئاسة العشيرة، وقصد من ذلك مواجهة ومعارضة القائد شيباتا كاتسو إيه Shibata Katsuei (١٥٢٢م – ١٥٨٣م) وهو كذلك كان من أهم قواد نوبوناجا وزوج أخته التى تدعى أوإيتشى نوكاتا Oichi Nokata فى نفس الوقت. وكان كاتسو إيه قد تحالف مع الابن الثالث نوبوتاكا من أجل إقصاء طويوطومى هيديوشى إلا أنه سوف يهزم أمام جيش هيديوشى كما سوف نذكر فيما بعد وحضر مع السالف ذكرهم المحارب نيوا ناجاهيدى Niwa Nagahide

(١٥٣٥ – ١٥٨٥م) المتحالف مع هيديوشى، والمحارب إيكيدا نوبوتيرو Ikeda Nobuteru (١٥٣٦ – ١٥٨٤م).

وفى هذا الاجتماع حاول كل من الأخوين إثبات أنه الأحق بخلافة والده على زعامة عشيرة أودا. وقام كاتسو إيه بتأييد الأخ الأصغر نوبوتاكا ولكن لأن ذلك فى العرف اليابانى غير منطقى فقد قدم هيديوشى حفيد نوبوناجا الذى كان يدعى سان بوشى Sanboshi على أنه الوريث الشرعى لنوبوناجا على الرغم من أنه كان لا يزال رضيعا كما ذكرنا آنفًا، وبالفعل نجح فى ذلك مؤقتا حتى استطاع تقلد مقاليد الأمور بأكملها بعد القضاء على كل منافسيه. ففى إبريل ١٥٨٣م تقابل جيشا هيديوشى وشيباتا كاتسو إيه فى موقعة شيزوجاتاكى الواقعة فى منطقة أومى Oumi (محافظة شيجا) فكان الانتصار الساحق حليف هيديوشى وأبلى فى هذه الموقعة جنود هيديوشى بلاءً حسنا وعلى الأخص اشتهر سبعة من جنود الرماة، والذين أصبحوا فيما بعد من أهم أتباع هيديوشى أثناء فترة حكمه التى يطلق عليها عصر موموياما Momoyama نسبة إلى المكان الذى كان يحكم منه هذا القائد.

وعلى إثر هذه الموقعة قام شيبانا كاتسو إيه بإشعال النيران فى قلعته فى إيتشى منتحرا على طريقة شق البطن ومعه زوجته إيتشى نوكاتا أخت أودا نوباناجا، وكانت هذه النهاية المأساوية معتادة للمحاربين عند انهزامهم، وهكذا سقط ثانى أعداء هيديوشى بعد أكيتشى ميتسو هيدى، وكان من أهم نتائج موقعة شيزوجاتاكى Shizugatake أن فُتح الطريق أمام هيديوشى لإكمال عملية التوحيد.

وكذلك فإن هيديوشى استطاع إخضاع منطقة هوكوريكو أى محافظات توياما وإشيكاوا وفكوى ونيجاتا وكانت الخطوة التالية هى

إنشـــاء هيديوشى لقلعة أوساكا وتعتبر أوســاكا موقعا هاما جدا بالنسبة لكيوطــو حيث تتحكم فى الطريقين الــبرى والبحرى نحوها، وقد وجد هيديوشى أن أوساكا يجب أن تكون نقطة الانطلاق نحو عملية التوحيد، وأن يكون بها مقر الحاكم .

والموقــع التــى تحتلــه قلعــة أوســاكا وملحقاتهــا تبلغ مســاحته حوالى ١٣ كيلو مترا مربعا. وقد بدأ هيديوشــى عملية الإنشــاء فى الأول من ســبتمبر عام ١٥٨٣م واكتمــل بناؤها تقريبًا فى عــام ١٥٨٥م. ومن أجل إنشــاء هذه القلعة العظيمة فقد جمع هيديوشى عشرات الآلاف من الرجــال من أكثر من ثلاثين مقاطعة. وقــد حُملت أحجار حوائط القلعة من جزيرة تســمى شودوشيما على بعد حوالى ٢٠٠ كيلو متر من أوساكا. وكانــت مهمة صعبة للغاية خاصة إذا عرفنــا أن حجم بعض أحجارها يفوق حجم أحجار أهرامات الجيزة.

وقد تكون البرج الرئيسى للقلعة من خمسة طوابق تضم تسعة أدوار، ويروى المبشرون الغربيون أنهم كانوا يشاهدون حوالى ألف مركب محملة بالأحجار تدخل كل يوم ميناء أوســاكا من أجــل بناء قلعتها العظيمة. ويتحدثــون أيضا عن انبهارهم بفخامة الحجــرات الداخلية ورفاهيتها. فقد كانت الحجرة التى يقام بها طقوس الشــاى اليابانى التقليدية ذات حوائط مجلدة بصفائح الذهب. وكانت الأدوات والأوانى المســتخدمة فى هذه الطقوس أيضا من الذهب الخالص، وإلى جانب ذلك فقد كانت هذه الحجرة ممكنة الفك والتركيب ولذلك يمكن نقلها إلى أى مكان آخر. وقد تم تجديد وإعادة بناء قلعة أوســاكا عدة مرات، إلا أن الأحجار السفلى للقلعة تشهد بضخامتها على مدى قوة وفاعلية اليابانيين آنذاك.

كان فى انتظار هيديوشى حروب ومواقع كثيرة عليه أن يخوضها من أجل إكمال مشوار توحيد البلاد الطويل. فمنذ مارس ١٥٨٤م ولمدة ستة أشهر تالية قام هيديوشى بحرب طويلة النفس ضد كل من أودا نوبوكاتسو (الابن الثانى لنوبوناجا) وطوكوجاوا إييياسو وذلك فى منطقتى كوماكى وناجاكوتى الواقعتين فى مقاطعة أوارى (محافظة إيتشى Aichiken). وظلت الجيوش المتحاربة تتربص بعضها البعض حتى عقد هيديوشى صلحا مع نوبوكاتسو فى نوفمبر من نفس العام، وبعدها بشهر واحد عقد صلحا آخر مع إييياسو، ولكن فيما بعد غير هيديوشى خطته من أجل إخضاع المقاطعات الشرقية وهى إيدو والمقاطعات التى حولها.

وفى عام ١٥٨٥م استطاع طويوطومى هيديوشى أن يقهر ثورتى رهبان معبد نيجرو (Negoroshu) وسايكا (Saika) فى مقاطعة كيشو واللذين كانا يقفان إلى جانب طوكوجاوا إييياسو ضده أثناء حربى كوماكى وناجاكوتى. ثم استطاع هيديوشى بعد ذلك إخضاع كل جزيرة شيكوكو بعد إسقاطه لحكم المحارب تشوصو كابى موطو تشكا (Cho So Kabe Motochika) (١٥٣٩م – ١٥٩٩م) والذى استطاع أن يوحد كل هذه الجزيرة تحت إمرته. ولكن الإنجاز الأكبر الذى حققه هيديوشى فى ذلك العام (١٥٨٥م) لم يكن إنجازًا حربيًا بل سياسيًا، وهو حصوله على تفويض الإمبراطور له بحق حكم كل أنحاء اليابان بالنيابة عنه عندما منحه لقب كانباكو (Kanpaku) وهى وظيفة تعنى أنه بمثابة مساعد الإمبراطور الأول، وكانت تلك خطوة هامة جدًا على طريق التوحيد.

إذن فقد وصل هيديوشى إلى أرفع المناصب فى اليابان آنذاك – بعد الإمبراطور بالطبع – على الرغم من أصله المتواضع جدا، فقد جاء من

أسـرة ريفية بسـيطة، واسـتطاع عبر جهده المتواصل ومهاراته الذهنية والعسكرية أن يقنع نوبوناجا بها ويتقرب منه ليصبح بعد سنوات قليلة مـن مقتل سـيده الحاكم الفعلـى للبلاد. ولذلك كثيرًا مـا يضرب المثل بهيديوشى فى التحدى والكفاح والعصامية.

ثم لم يلبث هيديوشى حتى أصدر قانون السلام الشامل (Sobujirei) فى نفس العام (١٥٨٥م). وبمقتضى هذا القانون أو بالأحرى الفرمان أمر هيديوشـى كل الدايميوات المتحاربين بإقرار السلام بينهم، كذلك أعطى هذا الفرمان هيديوشـى حق تحديد نطاق حكم كل دايميو والمقاطعة التى يمكـن أن يحكمها. كذلك وتبعًا لهـذا الفرمان تقرر معاقبة كل الأطراف المتحاربة أو المتشاجرة من الديميوات بصرف النظر عن الظالم أو المظلوم أو المخطئ أو المصيب. ولذلك فقد تم تحريم أية نوع من الحروب أو حتى الصراعات الشخصية فى كل طبقات المجتمع اليابانى من أعلى مراتبها متمثلـة فى الدايميوات وحتى طبقة الفلاحين البسـطاء. وقد أطلق على هذا القانون أيضًا لقب «فرمان طويوطومى للسلام» وقد أعطى هذا القانون إشـارة واضحة لنهاية عصر الحروب فـى اليابان. بل لقد أصبح بمثابة الأساس القانونى الذى يعتمد عليه هيديوشى من أجل إخضاع أى مكان فى اليابان. ولذلك فهو يعتبر خطوة هامة أخرى فى طريق توحيد البلاد.

ولكن شيماظو يوشى هيسا Shimazu Yoshihisa (١٥٣٣م – ١٦١١) الذى كان يضع معظم جزيرة كيوشو تحت إمرته خالف هذا الفرمان فقام فى إبريل ١٥٨٦م بالهجوم على مقاطعة بونجو (محافظة أويتا الحالية) فاسـتنجد حاكمها أوتومو صورين بهيديوشـى، فقرر هيديوشى إخضاع كيوشـو وجهز جيشا عظيما خرج به من أوسـاكا فى العام التالى (١٥٨٧م)،

وحمل معه كميات كبيرة من الذهب والفضة ليشترى بهما الإمدادات والأسلحة حتى لا يحملها من أوساكا، لأن المسافة من أوساكا حتى كيوشو تزيد على الألف كيلو متر. بل إنه اصطحب معه زوجته وأولاده. وعندما وصل إلى ياماجوتشى - القريبة نسبيا من كيوشو - كون هناك جيشًا آخر مساعدا يزيد عدده على مائتى ألف جندى، وبدا أن هيديوشى بهذا الجيش الرهيب لا يقصد إخضاع كيوشو فقط بل إنه كان يرنو ببصره نحو كوريا القريبة من كيوشو، وهذا ما حدث بالفعل فى عام ١٥٩٢م.

وفى كيوشو سقط العديد من الدايميوات أمام جيش هيديوشى العظيم، وهنا لم يجد شيماظويوشى هيسا سوى الاستسلام أمام هيديوشى، فجاءه حالقا رأسه تماما (تعبيرًا عن الندم والاستسلام) طالبا العفو منه، فما كان من هيديوشى إلا أن أعفى عنه، وجعله يستمر فى حكم مقاطعات ساتسوما وأوسومى Oosumi وهيوجا Hiyuga كما كان من قبل حاكما عليها. وبذلك خضعت جزيرة كيوشو بأكملها تحت إمرته فى عام ١٥٨٧م.

ولم يبق رافعًا راية العصيان على هيديوشى سوى عشيرة هوجو القوية التى تحكم فى المنطقة الشرقية وعلى الأخص مقاطعة كاناجارا. وكذلك المحارب داتى ماسامونى Date Masamune (١٥٦٧م - ١٦٣٦م) فى منطقة أوشو Oushu أى محافظات فوكوشيما وميا جى وإيواتى وأومورى الحالية. أما عشيرة هوجو والمتمثلة فى المحاربين هوجو أوجى ماسا Hojo Ujimasa (١٥٣٨م - ١٥٩٠م) وابنه أوجى نائو Ujinao (١٥٦٢م - ١٥٩١م) فقد خرجت على أوامر هيديوشى وقامت بغزو المقاطعات الأخرى خارج معقلهم فى أوداوارا Odawara وذلك فى ١٥٩٠م وقد حاول هيديوشى أن يوسط طوكوجاوا إييا سو حيث إنه

كان حما الابن أوجى ماسا. وحيث إن الأب وابنه كانا يعرفان بتصلب رأيهما وعدم التفاهم بسهولة فقد فشلت وساطة طوكوجاوا فى إثنائهما عن مخالفة هيديوشى، ثم قام أوجى نائو بالإعداد للحرب فأمر حدادى كل منطقة ساجامى Sagami بصنع عشرين مدفع والكثير من البنادق. بل إنه جند الرجال من سن ١٥ سنة وحتى سبعين سنة، ودربهم على القتال.

ثم قام هيديوشى بالإعداد لحرب طويلة النفس كما فعل فى حملته ضد كيوشو وأعد جيش عرمرم يتكون من ثلاثمائة ألف جندى، ثم اتجه من البر والبحر نحو معقل عشيرة هوجو فى أوداوارا. وقام جيش هيديوشى العنيد بحصار قلعة أوداوارا لمدة ثلاثة أشهر حتى استسلموا جوعا بعد أن نفذت مؤنهم. وجاء أوجى نائو خاضعا تحت يدى هيديوشى الذى عفا عنه لأنه صهر طوكوجاوا إييياسو، ثم أبعد ليعيش فى جبل كويا Koyasan الموجود فى محافظة واكاياما. وسرعان ما توفى هناك فى ريعان الشباب ولم يبلغ الثلاثين من عمره، أما والده وأخوه الصغير فقد انتحرا على طريقة شق البطن. ثم واصل هيديوشى إخضاعاته لعدد من الدايميوات والمحاربين الخارجين على أوامره. كما أخمد ثورات كاسانى وأوساكى والمحارب كونوهيمى سازانى Kunoheme Sazane (١٥٧٠م- ١٥٩١م) والذين قاوموا هيديوشى عندما كان يعاقب منطقة أوشو. كذلك استطاع إخضاع المحارب داتى ماسامونى Date Masamune (١٥٦٧م - ١٦٣٦م) والذى اعتاد مخالفة أوامر هيديوشى لفترة طويلة. وبذلك أكمل هيديوشى عملية توحيد البلاد.

ومن أجل كسر شوكة الدايميوات والمحاربين وكذلك من أجل تجنب حد ث الحروب والمنازعات بين بعضهم البعض قام هيديوشى

بحركة تنقلات واسعة بينهم فى مختلف المقاطعات. وأشهر هؤلاء طوكوجاوا إيياسو الذى نقل نفوذه من منطقة طوكاى (محافظات شيزو أوكا –إيتشى جنوب جيفو- ميئى) إلى منطقة الكانتو أى مدينة إيدو وما حولها. ونقل داتى ماسامونى ونفوذه من يونى زاوا Yonezawa إلى منطقة كاساى وأوساكى. واستطاع بذلك الإجراء أن يتحكم فيهم جميعا.

بعد أن أصبح طويوطومى هيديوشى كانباكو أى الحاكم العام للبلاد بتخويل من الإمبراطور وجد أن عليه أن يقيم مقرا عظيما له فى كيوطو يليق بهذا المنصب العظيم فأقام قصرا ضخما على شكل القلعة يسمى شوراكودای Shurakudai فى عام ١٥٨٧م، وفى العام التالى استقبل فى هذا المقر الجميل الإمبراطور جويوزى Goyozei (توج فى عام ١٥٨٦م – ١٦١١م) بحفاوة بالغة، وفى ذات الوقت دعى عددا كبيرا من الدايميوات والقادة بلغ عددهم ٢٩ قائدا وجعلهم يقسمون يمين الولاء له وللإمبراطور. وطبقًا لهذا القسم يكون على هؤلاء جميعًا احترام أراضى ومخصصات البلاط الإمبراطورى والنبلاء، وكذلك عليهم طاعة ما يأمر به الكانباكو (الحاكم العام) وهو هيديوشى بالطبع طاعة عمياء، وهذا الإجراء إن دل فإنه يدل على حنكة هيديوشى السياسية وإنه بالفعل كان داهية لا يستهان به، لأنه بهذا الإجراء السياسى أكد إلى جانب انتصاراته الحربية العديدة على قدرته على توحيد اليابان تحت إمرته.

على أية حال فإن هذا المقر الفخيم الذى بناه هيديوشى وأقام به بعض الوقت تخلى عنه فيما بعد لابن أخيه هيدى تسوجو Hidetsugu وكذلك تخلى له عن لقب الكانباكو، ولكن بعد أن أنجب هيديوشى ابنه

من صلبه هيدى يورى Hideyori (١٥٩٣م – ١٦١٥م) ساءت العلاقة مع ابن أخيه هيدى تسوجو لدرجة أنه أعدمه فى عام ١٥٩٥م بسبب اتهامه بالتآمر عليه، وفى ذات الوقت تحطم قصر شوراكو داى أيضًا، وفيما بعد اتخذ هيديوشى من قلعة فوشيمى Fushimi – التى أنشأها بعد دمار مقره القديم – مقرا حكوميا له اختلى فيه بعيدا عن الناس، وكأنه يريد اعتزال الحياة العادية، وعلى الرغم من أن نظام حكم هيديوشى عرف بالديكتاتورية إلا أنه فى آخر عصره قام بعدد من الإجراءات التى تتعلق بالسياسة الداخلية، وتوضح مدى حنكته من أجل تطبيق الديموقراطية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ اليابان وهو إنشاؤه لجنتين تقومان بإدارة شئون البلاد وتنفيذ السياسة التى يريد تطبيقها وأطلق على إحداها لجنة المسئولين الخمسة (Gobugyō) والأخرى لجنة الحكماء الخمسة (Gotairō) وواضح من تسمية اللجنتين أن كلاً منهما كانت تضم خمسة أعضاء من كبار رجال الدولة وحكمائها.

وكما ذكرنا آنفًا أن هيديوشى قام بحركة تنقلات بين العديد من الدايميوات والقادة ليبعدهم عن مناطق نفوذهم. وكان من أشهر هؤلاء طوكوجاوا إيياسو الذى قام بنقله من منطقة نفوذه الأولى فى منطقة طوكاى (محافظات شيزوأوكا – أيتشى – جنوب جيفو – ميئى) إلى منطقة كانتو Kantō وهى مدينة إيدو وما حولها من مدن وذلك حتى يتجنب الصدام العسكرى معه. ولذلك السبب أقام طوكوجاوا عاصمة حكمه فى إيدو بسبب نقل نفوذه إليها.

وظلت هكذا لمدة ٢٦٥ عاما حتى تغير اسمها إلى طوكيو مع بداية عصر ميجى فى عام ١٨٦٨م أى العاصمة الشرقية تمييزا لها عن العاصمة

الغربيـة كيوطـو، ولكن فى حالة وجود إيدو عاصمـة لحكم الباكفو أى الحكومة العسكرية ظل الإمبراطور مستقرا فى كيوطو لأنها كانت العاصمة الرسميـة للبـلاد. ومع بداية عصـر ميجى انتقل الإمبراطور وحاشـيته وقصره إلى طوكيو التى يرجع أهميتها فى الحقيقة إلى طوكوجاوا إييياسو، ولتصبح العاصمة الرسمية للبلاد بدلا من كيوطو التى استمرت كذلك لمدة تزيد عن ألف عام.

٢ - مسح الأراضى الزراعية ونزع الأسلحة :

مسح الأراضى الزراعية ونزع الأسلحة هما الضلعان الرئيسيان اللذان أقام عليهما طويوطومى هيديوشى نظامه السياسى الجديد.

الأول يسـمى أيضًا بمسح الوزير الأكبر للأراضى Taikōkenchi وهو ذلك المسـح الذى مارسه هيديوشى بكثير من العنف والإجبار على ملاك الأراضـى والفلاحين منذ عام ١٥٨٢م إلى عـام ١٥٩٨م. أى أنه بدأ هذا المسـح وما زال سـيده نوبوناجا على قيد الحياة. ولكنه بعد أن أخضع المقاطعات الشـرقية (Kantō) ومقاطعات المنطقة الشـمالية الشرقية من اليابان وهى تضم سـتة مقاطعات، أصدر هيديوشـى أمره بعمل مسـح شـامل لأراضى هذه المقاطعات السـت. وقد عين هيديوشـى على رأس لجنة مسـح الأراضى مساعده أسـانو ناجاماسـا Asano Nagamasa (١٥٤٧م – ١٦١١م)، وسـلمه خطابا رسميا مختوما بختم الشـوجون يتضمن الأوامر والتوجيهات الآتية :

عليك أن تبلغ ملاك الأراضـى والفلاحين أن يقتنعوا بالموضوع الذى أمرت به (موضوع مسـح الأراضى الزراعية). وإذا كان هناك أشـخاص

لا يوافقــون عليه، فيجب عليــك أن تحاصرهم فى قلاعهم إذا كانوا من أصحــاب القــلاع وأن تقتلهم عن بكرة أبيهــم، وإذا كانوا من الفلاحين فعليــك أن تتخلــص منهم جميعًا حتى لو قضيــت على قرية أو قريتين قضاءً مبرمًا، وعليك تنفيذ هذا الأمر بحزم فيما يزيد عن ٦٠ مقاطعة فى كافة أنحاء البلاد وذلك فى أبعد المقاطعات مثل دوا Dewa (وهى تكون الجزء الأكبر من محافظتى ياماجاتا وأكيتا حاليًا) وأوشو (وهى محافظات فوكوشــيما – مياجى – إيواتى – أوموري). ولابد عليك ومساعديك أن تأخذوا هذا الأمر مأخذ الجد، حتى لو قضيتم على الفلاحين، وحتى إذا كانــت نتيجة هذا أن تبور الأراضى والحقول فهذا لا يهم أيضًا، وعليك تنفيــذ هــذا الأمر بحذافيره فــى قمم الجبال وفى أعمــاق البحار حيث تســتطيع السفن الإبحار وإذا لم تســتطيعوا تنفيذ هذا الأمر فسوف يقوم هيديوشى بتنفيذه بنفسه، وعليكم كذلك أن تقدموا تقريرًا بذلك.

هكذا نجد أن هيديوشــى أعطى اهتمامًا كبيرًا لموضوع مسح الأراضى الزراعية وخاصة حقول الأرز التى تمثل الغالبية العظمى من الحقول وغير ذلــك من الحقول العادية وذلك لزيادة موارد الدولة من الضرائب العينية التى تفرض على الأراضى الزراعية بشــكل عام. وفى الحقيقة أن إجراء مســح الأراضى الزراعية كان يُجرى أيضًا فى عهد ســلفه أودا نوبوناجا ولكن طريقة المســح اختلفت فى كلتا الحالتين. ففى زمن نوبوناجا كان المزارعون وملاك الأراضى يملأون اســتمارة يحددون فيها مساحة حقول الأرز وغيرها من الحقول الأخرى. ويذكرون فى هذه الاستمارة أيضًا كمية إنتاجهم الزراعى وعليه يقدمون هذه الاســتمارة إلى مسئولى المسح، وفى الغالب كان هذا التقرير الذى يقدمه الفلاحون يُقبل كما هو من مســئولى الحكومة.

أما طريقة المسح التى طبقها هيديوشى فكانت دقيقة إلى أبعد مدى. فكان المساحون المرسلون من قِبل الشوجون ينزلون بالفعل فى الأراضى الزراعية ويقومون بمسح دقيق، بل إنهم فى كثير من الأحيان يقدرون إنتاجية الحقول بأكثر مما تنتجه بالفعل، ولذلك عانى المزارعون كما عانى أصحاب الأراضى. وعندما لم يستطع الفلاحون تسديد ما يأمر به المساحون أو بالأحرى مسئولو المسح الذين كانوا فى الغالب قساة فى معاملاتهم، فقد كان الفلاحون يهجرون أرضهم تماما ويذهبون بعيدا عنها. كذلك قامت ثورات عديدة قاوم فيها الفلاحون والمزارعون وأصحاب الأراضى جنود نظام هيديوشى، وكان أشهر هذه الثورات ثورة مقاطعة هيجو Higo (محافظة كوماموطو) وأيضًا هجرة أومى Oumi (محافظة شيجا) حيث قام ما يزيد عن نصف الفلاحين بهجرة أراضيهم وهربوا بعيدا. ورغم كل هذه المعاناة استمر هيديوشى فى ممارسة هذا المسح الدقيق حتى النهاية. وكان دائمًا ما يعتقد أن الفلاحين يكذبون على الحكومة ويمكرون بها لأنه أدرى بذلك لكونه في الأصل فلاحا. وبالفعل لم يهدأ لهيديوشى بال إلا عندما تجمع أمامه دفاتر تحوى مسحا لكل الأراضى الزراعية بالبلاد.

أما الإجراء الثانى الهام الذى قام به هيديوشى فكان نزع الأسلحة من أيدى الفلاحين فيما عرف بالكاتاناجارى Katanagari أى نزع أو حصد السيوف. وبالطبع لم تكن السيوف فقط هى المقصودة بهذا النزع ولكن كان إلى جانبها السهام والرماح والبنادق إن وجدت مع المزارعين، وقد تزامنت هذه العملية مع مسح الأراضى الشامل الذى تحدثنا عنه توا. ومن أجل تنفيذ هذا الإجراء شكل هيديوشى هيئة

خاصة تتولى مهمة نزع الأسـلحة بمختلف أنواعها من الفلاحين وكذلك من رهبان المعابد المسلحين.

وقد اتخذ هيديوشـى من بناء معبد هوكوجى الكبير فى كيوطو حجة له من أجل نزع الأسـلحة، حيث إن بنـاء هذا المعبد يحتاج إلى الكثير من المسـامير والشدات المعدنية. وذهب كذلك لغزى دينى حتى يؤثر به علـى الفلاحين وغيرهم من أجل إتمام هذا الإجراء حيث حاول إقناعهم بأنهم بمسـاهمتهم فى بناء هذا المعبد بأسـلحتهم فسوف يكون ذلك فى صـالح أعمالهم التى تدخلهم الجنـة فى العالم الآخر. وبالطبع كان هذا السـبب الدينى مجرد حجة فقط لا غير من أجل نزع جميع الأسـلحة التـى يمتلكها المزارعون. أما السـبب الحقيقى فهو محاولة هيديوشـى تجنب حدوث الثورات والهوجات التى صاحبت عملية مسـح الأراضى والتى كان يقوم بها الفلاحون وأصحاب الأراضى، وقد احتارت حكومة الباكفو فى كيفية القضاء على هذه الثورات ولذلك لجأت لهذا الإجراء، وإلى جانب ذلك أراد هيديوشى من وراء هذا الإجراء أن يتفرغ المزارعون لزراعة أراضيهم حتى يضاعفوا الإنتاج فتتضاعف بالتالى الضرائب العينية على حقولهم (nengu).

ومـن أجل إحكام قبضة هيديوشـى على البلاد قـام بإصدار قوانين وأوامـر فرعية مثل فرمان تخصيص قلعة واحـدة لكل منطقة أو مقاطعة (Ikkoku – Ichijo) وبنـاء عليه تم هدم الكثير من القلاع. فمثلاً أصبح مـا تمتلكه منطقة أوو Ouu (منطقة شمال شـرق اليابان) ٣٦ قلعة فقط بعدما كانت تمتلك ٤٨ قلعة قبل إصدار هذا الفرمان.

كذلك أصدر هيديوشى فرمانا آخر فى عام ١٥٩١م يمنع تحول الجنود

التابعين للمحاربين الكبار إلى مدنيين أو مزارعين أو تحول المزارعين إلى تجـار أو صناع. ولذلك يعتبر هـذا الإجراء بمثابة النموذج المصغر للنظام الطبقى الذى عرف فيما بعد فى عصر إيدو بالشينوكوشو (Shinōkōshō) الذى يميز بين الطبقات الأربع المكونة للمجتمع اليابانى وهى المحاربون ثـم المزارعون ثم الصناع ويأتى فى ذيل القائمة التجار. وهذا ما سـوف يأتى الحديث عنه بالتفصيل عند الحديث عن عصر إيدو.

٣ - هيديوشى والمسيحية :

عندما قُتل أودا نوبوناجا فى معبد هونوجى فى عام ١٥٨٢م لم يشعر المبشرون اليسوعيون بالقلق كثيرًا، لأنهم علموا أن خليفة نوبوناجا سوف يكون تابعه الأمين طويوطومى هيديوشـى وتوقعوا أنه لن يحدث تغيير يذكر نحو المسيحية والتبشير بها عما كان أيام عهد نوبوناجا الذى كان يحسـن إليها. وبالفعل صدق حدس المبشرين، فقد كان سلوك هيديوشى نحو المسـيحية ودودا ومؤيدا تماما كما كان سيده نوبوناجا يفعل. وكان من أكثر الدايميوات قربًا من هيديوشى الدايميو المسيحى العميق الإيمان تاكاياما أوكون Takayama Ukon (١٥٥٢ – ١٦١٥م) والذى سـوف ينقلب عليه هيديوشى كما سنرى فيما بعد. ومن أشهر مواقف هيديوشى الإيجابية نحو المسـيحية أنه عندما أتم مدينته القلعية فى أوسـاكا فإنه أقطع المسـيحيين جزءًا منها قاموا على الفور ببناء كنيسـة فيه. بل إن هيديوشى خرج خصيصًا من قلعته وأشرف على عملية قياس الأرض التى سـتبنى عليها الكنيسة. وقام تاكاياما أوكون بإحضار مواد البناء اللازمة للكنيسة بنفسه من ستسو.

وفى ربيع ١٥٨٦م زار وفد من المبشرين هيديوشى فى قلعته بأوساكا وقام بشرح معالم القلعة للمبشرين بنفسه. وقد صرح هيديوشى لهذا الوفد أنه بصدد إعداد ألفى سفينة لغزو كوريا والصين، وأنه يرجو من المبشرين أن يتوسطوا لدى البرتغاليين من أجل حصوله على سفينتين مسلحتين تسليحا جيدا، وأنه إذا استطاع إخضاع الصين فإنه سوف يبنى كنائس بكل أنحائها وسوف يأمر الصينيين بالدخول فى الديانة المسيحية، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ووعد المبشرين أنه سوف يعمل على جعل نصف اليابانيين أو أكثر يؤمنون بالمسيحية، مما أسعد المبشرين أيما سعادة.

ولكن بعد مرور عام واحد فقط من هذا التصريح حرم هيديوشى التبشير فجأة، بل وأمر بطرد المبشرين خارج البلاد، وقد صدر هذا الأمر بالتحريم فى عام ١٥٨٧م فى طريق عودة هيديوشى بعد إخضاع كيوشو، وقد صدر فى ثلاث مواد وهى :

أولا: أن اليابان بلد مقدسة ولذلك فلا يجب نشر المفاهيم والتعاليم الشيطانية.

ثانيًا : أن اجتهاد الدايميوات من أجل جعل اليابانيين يؤمنون بالمسيحية وإلى جانب ذلك يقومون بتحطيم المعابد البوذية والشنتوية شىء سفيه لم نسمع به من قبل فى العصور السابقة.

ثالثًا: على المبشرين أن يعودوا إلى أوطانهم فى خلال عشرين يوما من صدور أمر التحريم وغير ذلك فقد كان هيديوشى قد أمر الدايميو المسيحى تاكاياما أوكون بترك المسيحية ولكنه رفض وهنا استبعده هيديوشى من

منصب الدايميو ثم طرده إلى الفلبين طبقا لأمر تحريم نشـر المسـيحية، وتوفى هذا المسيحى المخلص فى مانيلا عام ١٦١٥م بعيدًا عن وطنه.

ولكن ما الذى حمل هيديوشـى على الانقلاب فجأة على المبشـرين والمسيحية بعد أن كان متوددا لهم مؤيدا للمسيحية ؟

فى الحقيقة إن هيديوشـى كما كان سـيده نوبوناجا يبغى أرباح التجارة وكذلك يريد الضغط على البوذية ورهبانها. ولما اسـتطاع التمكن مـن الرهبـان البوذيـين لم يعد هناك سـبب مقنع له حتـى يدافع عن المسـيحية، بل إنه من الأفضل لعملية توحيد البلاد هو كما جاء فى أمر تحريم التبشير أنه لابد من منع تحطيم المعابد البوذية والشنتوية وكذلك الحفاظ علـى قيم وعادات المجتمع اليابانى من الانهيار وهو كما ذكرنا لكى تتم عملية توحيد البلاد على أكمل وجه.

وقد اسـتبق هيديوشـى أمر التحريم وطرد المبشرين بأمرين آخرين يتعلقان بالتضييق على المسيحية ومبشريها والمؤمنين بها من الدايميوات وهو :

أولا: أن الاعتقاد بالمسـيحية يعتبر حرية شـخصية ولكن فى حالة المحاربين ذوى الرتب العالية والدايميوات لابد وأن يحصلوا على تصريح خاص من هيديوشى نفسه. وليس معنى أن يعتنق الدايميو المسيحية أن ينقل هذا الإيمان إلى الفلاحين الذين يعيشون فى نطاق نفوذه.

ثانيا : يمنع على المؤمنين بالمسـيحية إحداث ثورات وهوجات كما كان الحال فى ثورات البوذيين، وكذلك يمنع أكل لحوم البقر والخيول كما يفعـل الأوربيون، وفـى ذات الوقت يمنع علـى الأوربيين تصدير اليابانيين للخارج كعبيد.

ومـن الواضح أن كل هـذا التضييق على المسـيحية جاء فى أعقاب إخضـاع هيديوشـى لجزيرة كيوشـو وإطلاعه على الأوضـاع الحقيقية بالجزيرة وبدء تغلغل الديانة المسيحية بها فشعر بالقلق بسبب ذلك وقام بإصدار أوامر المنع والتحريم المتعددة السالف ذكرها.

ومـن بين الدايميوات الذين احتضنوا الكثير من المؤمنين بالمسـيحية اشـتهر الدايميـو المسـيحى أومـورا سـوميتادا Omura Sumitada (١٥٣٣م – ١٥٨٧م) بإيمانه العميق بالمسـيحية حتى إنه خصص هذه المدينة كلها لتصبح تابعة للكنيسـة. وهو أيضًا الذى أرسل بعثة الشباب المسـيحى إلى رومـا، وإلى جانب ذلك قـام بتحطيم العديـد من المعابد البوذية والشـنتوية مما أغضب هيديوشى غضبًا عارمًا لدرجة أن البعض كان يخشى أن تؤدى هذه السيطرة المسيحية إلى تحويل اليابان كلها إلى مستعمرة مسيحية فى أسوأ الأحوال.

وقد كان هيديوشـى يعير بعض الاعتبار نحو الدايميوات المسيحيين إلا أنه نظرًا للأسـباب السـابق ذكرها ووفاة كل من الدايميو المسـيحى سوميتادا وأوتومو صورين Otomo Sorin فى عام واحد وهو ١٥٨٧م لم يعد هيديوشـى يعطى اعتبارًا للمسيحية، وقام بإصدار أمر طرد المبشرين المسيحيين، وانتزع ناجاساكى من الكنيسة ووضعها تحت حكمه المباشر. ولكن على الرغم من هذا العداء للمسـيحية ومبشريها فلم يقدم هيديوشى على إيقاف التجارة مع الغرب المسـيحى، فقد كان هيديوشـى يحتاج إلى التجـارة مع البرتغاليين. ولذلك فقد أعفى السـفن البرتغالية من أى إجراءات عقابية بل وكان يرحب بها.

وهكذا نجد أن هيديوشى بدأ بداية مرحبة جدًا بالمسيحية على نسق

سلفه نوبوناجا ولكنه انقلب عليها وعاداها، وسوف تستمر هذه العداوة لها ولمعتنقيها فى عصر إيدو بل وسينكل بهم أشد التنكيل كما سيأتى فيما بعد عند الحديث عن عصر إيدو وعزلته.

ولكن مهما كان من عداء هيديوشى للمسيحية فلم يكن هذا يجعله أن يتغاضى عن تشجيع التجارة التى يحتاج إليها كما أسلفنا. ولذلك أصدر عدة فرمانات من أجل تأمين طرق الملاحة التجارية مع الغرب وخاصة البرتغاليين، ففى عام ١٥٨٨م أصدر فرمان تحريم القرصنة البحرية. كذلك أسبغ حمايته على تجار كيوطو وساكاى وناجاساكى وهاكاتا من أجل عبورهم الآمن إلى دول شرق آسيا، وهنا وقع هيديوشى فى المحظور وتناقضت قوانينه من أجل حماية التجار مع فرماناته للتضييق على المسيحية، وهكذا لم يستطيع منع الديانة المسيحية من الانتشار فى كل أنحاء اليابان.

وفى عام ١٥٩٦م وقعت حادثة السفينة الإسبانية سان فيليب، فقد تم الاستيلاء على هذه السفينة بناء على تصريح طائش لأحد ملاحيها وكذلك لوشاية من برتغالى مفاده أن إسبانيا من أجل توسيع مستعمراتها تستخدم المبشرين من أجل ذلك. وعندما علم هيديوشى بذلك قام بالقبض على ٢٦ من المبشرين والمؤمنين بالمسيحية وكانوا معظمهم من جمعية فرانشيسكو المسيحية الإسبانية. وأرسلهم إلى ناجاساكى حيث تم إعدامهم جميعا، وهؤلاء ما يطلق عليهم بالشهداء الستة والعشرين وعلى إثر هذه الحادثة تصاعد الصراع بين هيديوشى والجمعيات الدينية الإسبانية التى تعمل بالتبشير. وقد أكدت هذه الواقعة على التهديد الذى تمثله المسيحية بالنسبة للطبقة الحاكمة فى اليابان، ومنذ هذه الحادثة لم يتوقف إيذاء المسيحيين فى اليابان إلا بعد فترة طويلة.

٤ - سياسة هيديوشى الخارجية وغزو كوريا

لا شـك أن طموح طويوطومي هيديوشى كان بلا حدود، فهذا الرجل الذى جاء من أصل ريفى وأسرة فقيرة استطاع أن يتسلم الراية من سيده نوبوناجا وأن يكمل مشـوار توحيد البلاد على أكمل وجه مستخدمًا كل الوسـائل سواء كانت اللينة أو الشـديدة فهو لا يتورع أن يعاقب أعداءه أشد العقاب إذا لم يمتثلوا لأوامره أو أن يعفو عنهم ويبقيهم فى مناصبهم إذا لانـوا له وامتثلوا، فكان بالفعل محاربا عنيدا وسياسـيا محنكا فى ذات الوقت، فبعد أن أخضع هيديوشـى جزيرة كيوشو وحكامها لنفوذه رمى بنظره نحو الفلبين التى كانت آنذاك البلد التى ينطلق منها الزحف الإسبانى نحو آسيا منذ احتلالها عام ١٥٧١م.

كانت إسـبانيا تعير اهتمامًـا كبيرًا من أجل الحصـول على تجارة التوابل مع دول جنوب شـرق آسـيا، ومن أجل ذلـك خاضت معارك تجاريـة عنيفة مع البرتغال. وظلت تتحين الفرص من أجل التقدم نحو الصين واليابان، ولكن لأجل إعطاء كل قوتها لإدارة القارة الأمريكية فقد تركت المنافسـة على دول شرق آسيا لتعطى الصدارة فى ذلك للبرتغال، ولكن وبرغم ذلك ظلت الفلبين وحدها تحت سيطرتها.

وفى عام ١٥٩١م أرسـل هيديوشى خطابا إلى الحاكم العام الإسبانى علـى الفلبـين قائلا فيه: «أنـا الملك الذى وحد اليابـان، والآن أنا فى طريقى لإرسال قوات من أجل إخضاع كوريا وريوكيو Ryukyu (أوكيناوا) والصين، وسوف أخضع الفلبين بسرعة وأجعلهم جميعا يدفعون الجزية لليابان».

بالطبع لم يكن لدى هيديوشى آنذاك ما يجعله يستطيع غزو الفلبين، ولكن إسبانيا استطاعت توظيف هذا التصريح توظيفا ماهرا وعبر مباحثات مع اليابان نجحت فى إرسال عدة جمعيات تبشيرية إليها، مثل جماعة فرانسيسكو ودومينيكو وغيرهما. وبالطبع اصطدمت هذه الجمعيات التبشيرية الإسبانية بمثيلتها البرتغالية التى كانت تحتكر من قبل النشاط التبشيرى فى اليابان.

وقد ذهب هيديوشى بأحلامه فى الغزو حتى تصور أنه سوف يغزو الصين ومن ثم تصبح الهند لقمة سائغة فى فمه، ويجعلها أيضا تدفع الجزية لليابان. أما تايوان فقد أرسل لها هيديوشى بالفعل وفدا فى عام ١٥٩٣م لإقناعها بدفع الجزية لليابان، ولكن لأنه لم يكن لدى تايوان آنذاك حكومة ولم تكن دولة بمعنى الكلمة فلم يستطع هذا الوفد إنجاز شئ ما.

ولكن هيديوشى مضى فى تحقيق حلمه فى غزو كوريا بعد أن استطاع إخضاع كيوشو بنجاح كبير جعل كل دايميواتها يمتثلون لأمره. وقد قام هيديوشى بمحاولتين لاحتلال كوريا الأولى فى عام ١٥٩٢م وتسمى بغزوة بونروكو Bunroku Noeki والثانية فى عام ١٥٩٧م وتسمى بغزوة كيتشو Keichōnoeki وذلك نسبة إلى الفترة الزمنية التى تمت فيها هاتين الغزوتين.

وقد بدأ هيديوشى التفكير فى غزو كوريا منذ عام ١٥٨٧م عندما طلب من كوريا عبر حاكم جزيرة تسوشيما (جزيرة تقع بين اليابان وكوريا) ويدعى صوشى Soshi من أجل مساعدة كوريا اليابان لغزو الصين وكذلك لكى تدفع كوريا الجزية لليابان. وقد استقبل هيديوشى وفدا كوريا فى قصره جوراكودای الذى تحدثنا عنه من قبل شارحا كيف أنه يريد أن

يخلـد اسمه عن طريق غـزو الصين، ولكن كوريا رفضـت بالطبع مثل هـذه المطالب غير المسـئولة، وربما كان ما فعله هيديوشـى من احتقار لإرادة كوريا هو بداية العلاقات السيئة التى استمرت لفترة طويلة عانت خلالهـا كوريا من الصلـف اليابانى، وذلك على الرغـم من أنها أقرب جارات اليابان جغرافيا لها. وفى الحقيقة لا تزال رواسـب هذه العلاقة السيئة بين البلدين باقية فى نفوس الكوريين حتى يومنا هذا.

على أية حال فقد اسـتعد هيديوشـى لغزو كوريا منذ تلك اللحظة، ومن أجل ذلك أقام معسكرا كبيرا لجيشه فى ناجويا، وفى عام ١٥٩٢م (العام الأول من بونروكو) أرسـل جيشـا ضخما مكونا من مائة وخمسين ألف جندى إلى كوريا، ولكن فى إنفاذ هيديوشى لحملته يبرز سؤال هام وهو هل كانت أحلام هيديوشى فى غزو كوريا هى فقط الباعث على هذا التفكير لديه؟

الحقيقـة أن هناك أسـبابًا أخرى أدت بهيديوشـى إلى حملته هذه. فقـد أبقت الحـروب الداخلية فى اليابان على قوات عسـكرية ضخمة للدايميوات، ففكر نظام هيديوشـى فى توجيه هذه القوات نحو الخارج فلم يجد أقرب ولا أسـهل من كوريا حتى يوجه لها هذه القوات، وإلى جانب ذلك فقد كان يحيط بهيديوشـى تجار أغنياء حاولوا أن يتربحوا مـن الحـروب الخارجية ما لم يسـتطيعوا تربحه عـن طريق الحروب الداخلية، وراودتهم أيضًا أحلام المكاسـب الكثـيرة التى عادة ما تأتى مـن تطور التجارة عقب الحـروب. وهكذا اجتمعت أحـلام العديد من الدايميوات والمحاربين والتجار الأغنياء مع أحلام هيديوشـى من أجل توسعة نفوذهم خارج البلاد فكان قرار غزو كوريا.

نزل جيش هيديوشـى الأول فى ميناء بوسـان فى أبريل ١٥٩٢م ثم

استطاع الجيش الثانى إسقاط مدينة كانجو (العاصمة سول الآن) بسرعة فائقة نظرا للسلاح الجديد الذى تسلح به وهو البندقية وكان ذلك فى بداية مايو، ثم ما لبث أن احتل مدينة هيجو (بيونج يانج الحالية)، ويجب أن نعرف أن كوريا آنذاك لم تكن مقسمة إلى كوريتين كما هو الحال اليوم. على أية حال كان الهجوم اليابانى الافتتاحى كاسحا ومباغتا للكوريين وذلك لعدم الاستعداد الجيد منهم وكذلك لقوة السلاح اليابانى المتمثل فى البنادق كما أسلفنا القول.

ولكن مع تقدم المعارك نحو الشمال واتساع نطاقها واجهت القوات اليابانية مشاكل عديدة من نقص فى أعداد الجنود والإمدادات الحربية وكذلك نقص حاد فى الأغذية.

وإلى جانب ذلك تفاقمت الأوضاع الحربية للجيش اليابانى بعدما هُزم جيشها البحرى أمام القوات البحرية الكورية وذلك بسبب استخدام أول سفينة مدرعة عرفها التاريخ، وفقدت بذلك اليابان تفوقها البحرى، كذلك عانت القوات اليابانية من ضربات الفدائيين الكوريين، ثم اضطرت إلى التراجح نحو الجنوب أمام الجيش الذى أرسلته الصين لمعاونة كوريا، واضطر كذلك الجيش الذى يقوده القائد اليابانى كونيشى يوكى ناجا Konishi Yokinaga (١٥٥٨م – ١٦٠٠م) إلى التراجع أمام تقدم القوات الصينية المعاونة.

ولم يجد هيديوشى وقائد جيشه كونيشى يوكى ناجا أمامهما إلا اللجوء إلى محادثات السلام مع الصين، وعليه حضر وفد صينى إلى اليابان فى منتصف شهر مايو ١٥٩٣م. وتراجع كذلك الجيش اليابانى حتى وصل إلى نقطة البدء فى ميناء بوسان الكورى، وهكذا توقفت

الحـرب ضد كوريا بعد حوالى عام من بدءها، وظلت مباحثات السـلام تتعثر لمدة ثلاث سنوات.

وبرغم الظروف العصيبة التى واجهها جيش هيديويشـى فى كوريا، إلا أنه استسلم لأوهام النصر العظيم الذى ظن أنه حققه فى كوريا، فظل يفرض شـروطه المتشـددة إلى حد كبير أثناء مباحثاته مع الوفد الصينى الذى قدم إلى اليابان، ومن هذه الشـروط أن تستسلم الصين لليابان، وأن يتزوج الإمبراطور اليابانى من الإمبراطورة الصينية، وكذلك تنازل الصين عن مسـتعمراتها فى جنوب كوريا، وإلى جانب ذلك اسـتعادة التجارة البينية بين البلدين وغير ذلك من الطلبات والشـروط قدمها هيديوشـى للوفـد الصينى، ولكن رئيس الوفد الصينى واجـه هذه الطلبات بقوله: «إن الصين سوف تعينك ملكا على اليابان» بمعنى أن اليابان تتبع الصين وتحت سيطرتها، وكذلك على اليابان أن تدفع الجزية للصين مما جعل هيديوشى ينفجر غضبا من هذا الأسلوب المتعالى فى التعامل مع اليابان، كانت تلك الواقعة فى عام ١٥٩٦م. ولم يلبث هيديوشى أن أرسل جيشا جـرارا مكونا مـن أكثر من ١٤٠ ألف جنـدى إلى كوريا مرة أخرى فى يناير عام ١٥٩٧م الموافق العام الثانى من كيتشو ولذلك سميت هذه الغزوة الثانية على كوريا بغزوة كيتشو. ولكن هذه المرة كانت الظروف مختلفة، ولم يحقق الجيش اليابانى الانتصارات الخاطفة التى حققها المرة السابقة بل عانى من قسوة برودة شتاء كوريا والجوع بسبب نقص المواد الغذائية، وبينما يعانى الجيش اليابانى أشـد المعاناة توفى هيديوشـى مريضا فى أغسـطس ١٥٩٨م، ثم قرر كل من طوكوجاوا إيياسو ومائيدا طوشى إيه اللذيـن آلت إليهما مقاليد الأمور فى البلاد سـحب جيش الحملة على

كوريا، ولكن بعد أن فشلت هذه الحملة فشلاً ذريعًا فى تحقيق أى شىء إيجابى، فعلى الصعيد الخارجى أوجدت هذه الحملة أثرا سيئا للغاية فى نفوس الكوريين نحو اليابان بسبب العدد الكبير من الضحايا التى خلفتهم الحملة وإلى جانب ذلك الأساليب الوحشية التى مورست ضد الكوريين، والتى تعد نقطة سوداء فى تاريخ هيديوشى حيث أمر بأن تقطع أنوف مئات الكوريين من الجنود والمواطنين، وتحمل إلى اليابان لاتخاذها دليلاً على انتصاره، وأما عن اليابانيين أنفسهم فقد فقدوا الكثير من جنودهم فى هذه الحملة الفاشلة، علاوة على إنفاق أموال طائلة عليها، هذا إلى جانب فقدان اليابان للعلاقة الجيدة التى كانت تجمعها بكوريا حتى حدوث حملتى هيديوشى وترك جرح عميق فى نفوس الكوريين نحو اليابان، وأخيرا كان لهذه الحملة الفاشلة الأثر الكبير على إضعاف نظام هيديوشى السياسى الذى لم يدم طويلا بعدها.

٥- نهاية هيديوشى

فى مارس ١٥٩٨م أقام هيديوشى احتفالاً كبيرا بالربيع وذلك باستعراض الزهور الشهيرة فى اليابان باسم هانامى Hanami كان هيديوشى قد جاوز الثانية والستين من عمره، وبدا منشغلاً على ابنه الصغير من صلبه هيدى يورى الذى كان من المفروض أن يرث العرش الذى صنعه أبوه عبر سنوات طويلة من الكفاح والاجتهاد، ومن الطبيعى أن يكون مصير نظام هيديوشى السياسى غامضا بسبب هذا الوضع خاصة أنه عانى من مرض الموت بعد هذا الاحتفال مباشرة.

وكانت هناك معاناة أخرى يعانى منها هيديوشى، وهو ذلك الخلاف الحاد الذى نشأ بين معسكرين من الدايميوات يتبعان هيديوشى

الأول ويمثلـه كاطـو كيوماسـا Kato Kyomasa (١٥٦٢ – ١٦١١م) وهو المعسـكر الحربى أو الصقـور، والثانى ويمثله كونيشـى يوكيناجا Konishi Yukinaga (؟؟؟؟ – ١٦٠٠م) وإيشـيدا ميتسـو تسـارى Ishida Mitsutari (١٥٦٠ –١٦٠٠م) وهو المعسـكر المدنى أو الحمائم الـذى كان يعارض الحرب خـارج البلاد ويدعو للاهتمـام بأمور البلاد الداخلية، وهذان المعسكران كانا يختلفان أيضًا فى طريقة إدارة الحرب فى كوريا، كذلك كان المعسـكر الأول يدعو دائمًا إلى توسيع مستعمرات اليابـان فى الخارج أمـا الثانى فكان يدعو إلى إقرار السـلام مع الدول المجاورة.

وفى شـهر مايو مـن ذات العام وأثناء وجود هيديوشـى على فراش الموت، قام بتشـكيل هيئة استشـارية من خمسـة من كبار الدايميوات أشـهرهم طوكوجاوا إيياسـو، وكانت مهمة هذه الهيئة الأساسـية هى البحث فى أمر مسـتقبل ابن هيديوشـى ونظامه بعـد وفاته، وقد طلب هيديوشـى من هذه الهيئة الاستشـارية معاونة ابنه هيدى يورى وتقديم النصح له، بل وجعلهم يكتبون عهدا بذلك. ولم يلبث هيديوشى أن مات بعد ذلك الاجتماع بثلاثة أشهر فقط فى أغسطس ١٥٩٨م عن عمر يناهز ثلاثة وستين عامًا.

أما عن شخصية هيديوشى التاريخية فهى تعد من أحب الشخصيات لـدى اليابانيين ويأتى فـى كثير من الأحيان الشـخصية التالية للأمير شـوطوكو طايشـى Shōtōku Taishi (٥٧٤م – ٦٢٢م) والـذى ظلت صورتـه لمدة طوية مطبوعة على إحـدى العملات الورقية اليابانية وذلك لشـدة حب اليابانيين له. والجدير بالذكر هنا أن شخصية نوبوناجا لا تعد

محبوبة ولا مكروهة بالنسبة لليابانيين، أما شخصية طوكوجاوا إيياسو فهى شخصية مكروهة لليابانيين نظرًا لانتهازيته المشهورة، ولكن لابد لنا أن نتساءل لماذا أصبح هيديوشى محبوبا لدى اليابانيين لهذه الدرجة التى تجعله يأتى فى المرتبة الثانية بعد الأمير شوطوكو؟

والإجابة ترجع إلى طبيعة اليابانيين التى تقدر وبشدة كفاح وجهاد الإنسان، فقد نشأ هيديوشى فى أسرة ريفية فقيرة ولكنه كافح كفاحا مريرا حتى وصل لدرجة مساعد الإمبراطور (كانباكو) واستطاع بعد مجهود مضنى أن يكمل مشوار توحيد البلاد الذى بدأه سلفه نوبوناجا، ولابد أن نتذكر هنا مدى القيود التى وضعها النظام الطبقى آنذاك لكى تجعل من صعود الفرد من طبقته الريفية الفقيرة لطبقة أعلى، شيئا بعيد المنال فما بالنا أن يصعد هذا الشخص ليكون بمثابة الرئيس لهذا البلد.

هذا ومن فرط حب اليابانيين واحترامهم لقصة كفاح هيديوشى فقد صدرت خلال عصر إيدو العديد من الأعمال الأدبية التى تحكى قصة هذا الكفاح تحت عنوان «قصة ملك Taikōki» وكذلك تناولتها الخطب الحماسية والمسرحيات، وكانت أشهر هذه الحكايات تلك التى كتبها أوزى هوآن Oze Hoan حوالى عام ١٦٢٥م فى ٢٢ جزء.

وازدادت شعبية هيديوشى بعد الولوج فى العصر الحديث حيث كانت الغلبة لمفاهيم المساواة والمنافسة الحرة التى تجعل الجميع متساوين وتجعل من حق الجميع أن يحلموا بأن يصعدوا إلى أعلى الدرجات فى المجتمع عبر الجهد واستخدام القدرات الذهنية التى يتمتع بها الفرد عن الآخرين، ووجدوا القدوة فى ذلك عند هيديوشى، كذلك برزت صورة هيديوشى كمثال على الطموح أمام العسكريين اليابانيين الذين

تطلعوا نحو آسـيا، قبل الحرب العالمية الثانية حيث كان هو مبدع هذه الفكرة فى الخروج من البوتقة اليابانية إلى الأراضى الشاسـعة فى القارة الآسيوية.

وتبقى نقطة أخيرة من حق هيديوشى أن نذكرها وهى أنه خرج على عرف تاريخى أسسه شوجونات عصر أشيكاجا الذين حاولوا التقرب من الصين بتملقها ليحافظوا على سـلطتهم المزعزعة وكذلك من أجل تحقيق الربح الوفير عن طريق التجارة مع إمبراطورية الصين العظمى فلم يتورعوا عن أن يعطوا أباطرة الصين من أسـرة مينج لقب «ملك اليابان» فما كان من هيديوشـى إلا أن حاول بالفعل غزو الصين وإهانتها حتى يمحو هذا العـار التاريخى عـن اليابان التى كانت تفاخر دائمـا بأنها إمبراطورية الآلهة. وهو لذلك أيضا غضب غضبا شـديدا عندما صرح له رئيس الوفد الصينـى الذى أتـى إلى اليابان للتصالح معها أن الصين سـتجعله ملكا علـى اليابان، وربما كان ذلك أيضا سـببا من أسـباب حب اليابانيين لهيديوشى وتقديرهم له.

٦- ثقافة عصر موموياما :

عرف عصر هيديوشـى الذى اسـتمر لحوالى خمسـة عشرة عامًا فقط مـن عام ١٥٨٣م – ١٥٩٨م بعصر موموياما أى عصر الخوخ، وجاءت هذه التسمية من أشجار الخوخ التى زرعت فى نفس المكان الذى كانت تقع فيه القلعة التى شـيدها هيديوشـى فى منطقة فوشـيمى وذلك بعد اندثـار القلعة. وقد تميزت ثقافة هذا العهد بالرخاء والمظاهر المادية التى لم تعـرف مـن قبل وابتعدت عن الروح البوذية التى سـادت إبان عصر

الحـــروب الداخلية، فاهتمت بالفنـــون والثقافة الحياتية التى تتيح أكبر قدر من المتعة على حساب الدين والعلم، وكان لذلك عدة أسباب أهمها :

أولاً : اســـتيعاب اليابانيـــين للثقافـــة الأوربيـــة التـــى جاءت عبر البرتغاليين.

ثانيًـــا : انتهاء حالة الحرب بين الديميوات والتى اســـتمرت حوالى مائـــة عـــام بما يعرف بعصر الحروب جلب حالة مـــن الأمان التى أدت بالتالى إلى رخاء فى التجارة والصناعة والزراعة، ونشأت بالتالى طبقة من التجار الأغنياء غناء فاحشًا.

ويكفى أن نلقى نظرة على حالة القلعة التى أنشـــأها هيديوشـــى فى أوســـاكا لتجعلنا ننبهر من الرخاء الذى كان ســـائدا آنذاك، فنجد مثلا القاعة الكبرى التى كان يســـتقبل فيها هيديوشـــى الدايميوات، وحجرة طقوس الشاى اليابانية المصنوعة من الذهب والفضة، وفى الخلف كانت حجرة نوم هيديوشـــى والحجرات التى كانت تخزن بها أدوات الشاى اليابانـــى كلها كانت مغطاة بصفائح مـــن الذهب ومزينة بلوحات زيتية غاية فى الجمال اشتهر بها هذا العصر.

وإلى جانـــب ذلك اتســـمت حياة المواطن العادى فـــى عصر موموياما بالدعـــة والرخاء، وظهر بجـــلاء تأثير قدوم الأوربيـــين لليابان ما جعل اليابانيـــين ينظرون بإيجابية وعيـــون متفتحة على العالم خارج بلادهم. كذلـــك كان تحول الثقافة من ثقافة النبلاء وثقافـــة البوذية التى صنعها النبلاء ورهبان البوذية إلى ثقافة مدنية شـــعبية تعكس حياة سكان المدن وتهتـــم بالحياة الدنيـــا. كل هذا كان من أهم ملامـــح ثقافة موموياما أو بالأحرى عهد طويوطومى هيديوشى.

وكانـــت اللوحات الفنيـــة التى تزين قاعات القـــلاع والقصور آنذاك تعكـــس روحا من البهجـــة والقوة وعلى الأخص لوحـــات الفنان كانو إيتوكـــو Kano Eitoku (١٥٤٣م – ١٥٩٠م) وحفيده الذى تأثر به فيما بعد تانيو Tanyu (١٦٠٢م – ١٦٧٤م) واشـــتهرت لوحاته الجميلة فى بداية عصر إيدو، وكانت لوحاته التى تصور الأســـود تمشـــى فى خيلاء أو اللوحـــات التى تضم الطيور والحيوانات تعكس قدرًا كبيرًا من الرخاء وحب الطبيعة والانفتاح عليها وذلك عكس ما كان سائدًا فيما مضى من كآبة نظرًا لظروف الحروب التى عمت البلاد.

كذلك تميز الفن فى عصر موموياما بانتشـــار اللوحات الجدارية، وهى تلك التى كانت تُرسم على جدار القلاع والقصور، وعلى فواصل الحجرات الخشـــبية وكذلك على البرافانات، وكان هذا النوع من اللوحات معروفا فى اليابان منذ عهد هيان (٧٩٤م – ١١٨٥م) إلا أن لوحات عصر موماياما الجدارية تميزت بفخامة نقوشها وتلألؤها.

ومن أشهر وأجمل اللوحات التى رسمها فنان عصرى أزوتشى موموياما كانو إيتوكو لوحة «داخل مدينة كيوطو وخارجها» وهى لوحة تصور مظاهر الحياة فى مدينة كيوطو من عربات عيد جيئون المزركشـــة تسير مصطفة فى شوارع كيوطو، وكذلك بيوت التجار وسكان المدينة، وهذه اللوحة قام برسمها العديد من الفنانين ولكن كان أشهرهم هذا الرسام السالف ذكره وفنان آخر يدعى أوى ســـوجى إييـــى موطو Uesugi Iemoto ، ويمكن الاســـتدلال أيضًا على حيويـــة مدينة كيوطو ورخائهـــا أثناء وبعد عصر موموياما من لوحة أخرى رسمت على ساتر خشبى كبير وضع أمام بوابة معبد هوكوجى الذى بناه هيديوشى وذلك فى الذكرى السابعة لوفاته.

وبلغ من الرخاء وازدهار الفن فى عصرى أزوتشى موموياما – أى عصرى نوبوناجا وهيديوشى – أن عامة الناس أيضًا كانوا يطلبون من فنانى هذا العصر أن يرسموا لهم رسومات على المراوح المصنوعة من الورق المقوى وكذلك الكتب المصورة. إذن فليس فقط علية القوم وأغنياؤهم من كانوا يطلبون ذلك الطلب الذى فيه الكثير من الرفاهية.

إن عهدى أزوتشى موموياما يعتبران عهدين للانفتاح بين عصرين من العزلة، أما عصر العزلة الأول فكان بدون اختيار اليابانيين، بسبب بُعد اليابان عن الغرب وعدم وصول الأوربيين لها. أما عصر العزلة الثانى فهو الذى تلى عهد موموياما وبدأ مبكرا فى عصر إيدو الطويل نسبيا.

وقد كان تأثير ثقافة الغرب فى فترة حكم نوبوناجا وهيديوشى لا يستهان به. فقد دخلت اليابان العديد من الأشياء الغربية مثل الكرة الأرضية وخريطة العالم التى جعلت اليابانيين يتعرفون على العالم الذى حولهم، وإلى جانب ذلك دخلت ماكينات الطباعة وتم طبع الكتب المسيحية عن طريقها والقصص الغربية التى شاعت آنذاك مثل قصة إيسوب، ولكن للأسف فقد تم منع هذه الطريقة من الطباعة الحديثة آنذاك وعاد اليابانيون لاستخدام الطباعة على ألواح الخشب مرة أخرى فى عهد إيدو. كذلك دخلت أثناء فترة موموياما العديد من الكلمات المسيحية المقدسة وظل اليابانيون يستعملونها حتى اليوم مثل كلمة Pan أى خبز وكلمة كاستيلا Castilla وهى نوع من الحلوى جلبه البرتغاليون لأول مرة فى ناجاساكى.

وتعد قلاع أوساكا وأزوتشى وفوشيمى من مظاهر حضارة عهدى أزوتشى مومويامـا حيث اختلفت هذه القلاع الثلاث من حيث مكان إقامتها وشكلها الداخلى عن القلاع السابق بناؤها فى العصور الأخرى، فقد بنيت هذه القلاع على أرض مستوية وليس على الجبال كما كان فى السابق. كذلك أنشئت بطريقة فخمة بضخامة توضح مدى قوة وعظمة ونفوذ منشئيها الذين استطاعوا توحيد البلاد، أما داخل هذه القلاع فقد تم إنشاء أماكن لإقامة المحاربين عبارة عن حجرات كبيرة ذات فواصل ومزدانة برسومات تقليدية. وكذلك بنيت قصور لإقامة الكانبكو وعائلته وضيوفه مثل قصر جوراكوداى الذى أنشأه هيديوشى. وتميزت هذه القصور بلوحاتها الجدارية التى رسمت على الحوائط وفواصل الحجرات والبرافانات، وكانت أرضية هذه الأشياء مذهبة والألوان المضافة عليها كانت زرقاء وخضراء.

ومن فرط جمال جدران وحجرات قلعة فوشيمى فقد تم نقل أجزاء منها إلى القاعة الكبرى لمعبد آخر خاص بالديانة الشنتوية وكذلك تم نقل أجزاء من قصر جوراكوداى الفخيم الذى أنشأه هيديوشى إلى معبد دايتوكوجى ومعبد نيشيهون جانجى Nishihonganji.

ومن أهم وأرقى المظاهر الثقافية التى اشتهر بها عصر مومويامـا طقوس الشاى اليابانى التقليدية وهذه الطقوس تتسم بالوقار والهدوء وتعطى النفس طمأنينة وسكون خاصة إذا تمت فى حجرة صغيرة وفى أجواء ريفية. ويعطى صوت غليان الماء فى الإبريق فى هذا الجو الهادئ السكينة والهدوء لمن يشاهد هذه الطقوس. وهذا ما يطلق عليه فى التراث الثقافى اليابانى بسكينة الشاى (Wabicha).

وكان تاجـر من مدينة سـاكاى اسمـه سـننوريكيو Sennorikyu (١٥٢٢م – ١٥٩١م) هـو الـذى أكمل هذا النـوع الخاص من الطقوس التقليدية، فقد كانت هذه الطقوس معروفة منذ عصر موروماتشى وكانت متأثرة بديانة الزن القديمة، ولكن مع اسـتمرار فوضى وصخب الحروب التـى سـادت اليابان قبل عصر موموياما فقد لجـأ مواطنو المدن إلى هذا النوع من الطقوس طلبا للراحة والاطمئنان.

وقد كان سننوريكيو معلما لطقوس الشاى للزعيم طويوطومى هيديوشى. ولسـبب غير واضح حتى الآن أمره هيديوشى أن يقتل نفسه على طريقة الهاراكيرى. وقد كان ريكيو هذا على علاقة وثيقة بسياسات هيديوشى، وربما لذلك وقع فى صراعات سياسـية أدت به إلى هذا المصير البائس. ويقال أيضًا أنه ارتكب واقعة فسـاد فيما يتعلق بأدوات الشـاى حيث كان متخصصـا فى تحديد قيمة هـذه الأدوات التى كانت باهظة الثمن إذا كانت أصلية وليسـت مقلدة، ويقال أيضًا أنه رفض أن يرسـل ابنته أوجين Ogin إلى هيديوشى فكان أن غضب عليه وأمره بأن يقتل نفسه.

على أية حال انتشـرت حفلات الشـاى التقليدية بـين كبار تجار كيوطو وسـاكاى وهاكاتا ثـم انتقلت فيما بعد لتنتشـر بين الدايميوات والمحاربين. ولكن اختلفت حفلات الشاى التى كان يقيمها الدايميوات عن تلك التى تتبع طريقة ريكيو البسـيطة فى أنها كانت متلألئة براقة وذات رفاهيـة عالية تحاول فى ذلك أن تحاكى ثقافة موموياما المزدهرة والغنية. وهكذا أعطى اختلاف حفلات الشـاى من حيث البسـاطة من ناحية والرفاهية من ناحية أخرى تنوعا ثقافيا تميز به عهد موموياما.

أما مسـرح الكابوكى فقد نشـأت فكرته الأساسـية فى هذا العهد،

وبالطبع يرجع ذلك أيضا كما فى الفنون الأخرى إلى انتشار حالة السلام بعد فترة طويلة من الحروب والفوضى، ففى منطقة كامونو شيجوكاوا Kamono Shujokaway بكيوطو حيث كانت معقل للتسلية والدعة، ذاع صيت امرأة تدعى أوكونى Okuni كانت تقوم برقصة الكابوكى، وهذا يرجع إلى وثائق من ذلك العهد وكذلك يمكن التعرف إليه من الصور التى ترجع لذلك العهد ولكن سنة ميلادها ووفاتها غير معروفة وكلمة كابوكى يرجع أصلها إلى الفعل Kabuku أى الأداء الهزلى أو ارتداء الشخص لأزياء غريبة وأداء حركات عجيبة أيضًا تدهش الناظرين، فمثلاً هذه السيدة السابق ذكرها كانت ترتدى ملابس الرجال وتمسك بالسيف وترقص ملوحة بالسيف، وكانت تحوز على إعجاب المشاهدين أيما إعجاب وذلك لأنهم كانوا يتمتعون جدا برؤية امرأة ترتدى ملابس الرجال وتؤدى حركاتهم ومن فرط شعبية أوكونى فقد قامت بأداء مسرحياتها فى مدينة إيدو ومدن أخرى عديدة، ويقال إن هذه السيدة كانت تقوم بكل هذا النشاط من أجل جمع تكاليف إصلاح معبد إيزمو الكبير حيث كانت تخدم فيه كراهبة، وبفضل هذه السيدة أو بالأحرى الفتاة الصغيرة شاعت رقصة الكابوكى بواسطة البنات، ولكن بعد ذلك حرمت حكومة الباكفو فى إيدو رقصة الكابوكى البناتى لأنها رأت أنها تدمر التقاليد، وأصبحت هذه الرقصة تُؤدى بواسطة الشباب الصغير السن، ثم سرعان ما حُرم هذا النوع من الكابوكى أيضا، وأخيرا أصبح يؤدى بواسطة الرجال فقط.

* * *